

مُضِحَاتُ الرِّقَابَةِ

تُرى لو شهدنا حوادث الحياة كلها دفعةً واحدةً، هل تصعب أو تهون؟ وهل يقع أثرها في النفس فاجعًا أو مضحكًا سخيًّا مغريًّا بالهزء والابتسام؟

تشغلنا الحادثة أياها وشهورًا فلا نفكر إلا فيها، ولا نحسب أن في الدنيا أمرًا جديرًا بالتفكير والاهتمام غيرها، ولا ننظر أننا نطبق العيش ونصبر على البقاء لو تحقق ما نحذره منها، ولا نرضى من أحدٍ أن يستخفَّ بها ويستكثر ما نعيه إياها من الهم والقلق والأهبة، ثم تمضي الحادثة وتتبعها العاقبة بعد العاقبة فتصبح عندنا — نحن لا غيرنا — تسليّة نرويها ونضحك منها ونتفرج بها كما نتفرج برؤية المشاهد الفنية التي تقع لشخص المسارح الخيالية!

تُرى لو رأينا الحادثة وعاقبتها، أو الحوادث وعواقبها، دفعةً واحدةً هل تكون كلها فاجعة كما نراها في حينها؟ أو تكون كلها خفيفة مسلية كما نراها بعد فواتها؟ وهل يكون اجتماع الحوادث بمثابة الفاجعة تضيفها إلى الفاجعة فلا تقوى النفس على احتمالها؟ أو تكون بمثابة الشيء يلغيه ما بعده فيطفئ بردها حرها، ويذهب قيظها بشتائها؟

سواء كان هذا أو ذاك يُخطئ مَنْ يظن أن عبدة الأيام تُعلمنا الاستخفاف بالحاضر كما نستخف بالماضي، فإنما هي تُعلمنا الاستخفاف بالماضي ولا زيادة، ولو علمتنا أن ننظر إلى حوادث اليوم كما ننظر إلى حوادث الأمس لحلت نسج الحياة وفكّت خيوطها ومسحت أصباغها وتركنت أمام حياة لا لون لها ولا مادة! كما تجتمع ألوان الصورة الزيتية مرةً واحدةً بدلًا من أن تتفرق في مواضعها، فلا ملامح إذا اجتمعت، ولا أشكال ولا ألوان!